قرية ظالمة للدكتور محمد كامل حسين

بقلم : فتحى الابيارى

واقبلت عليه تقول :

ـ اليوم عيد مولدى

فقال لها :

ـ وهل تظنين انى انسى ذلك ؟

ـ واريد ان تجعله يوما لا انساه ابدا .

ـ لك ذلك ..

ـ واريد ان تختصنى به، فلايشغلك عنى امر آخر ..

ـ ما كان اسعدنى بذلك ... لولا ما سيجرى فى اورشليم اليوم .

ـ لا يعنينى من ذلك شيء ، واحب الا تلتمس الأعـذار ، فانك تعلم انى لا اغفر مثقال ذرة اذا كان الامر يتعلق بحبك اياى ..

ـ وانا لا اطيق ان يمر بخاطرك انى اقصر فى ما ترغبين الى عمله ، ولكن لى فى دار الندوة اليوم شانا اى شأن .

ـ وماذا فى دار الندوة اليوم ؟

ـ انهم يطالبون بدم رجل قامت عليه قيامة الناس عامة ، جمهورا وقساوسة وعلماء ، ولا بد ان نحسم امره اليوم .

ـ ومالى ولذلك كله ، أترى أن موت رجل من عامة الناس ادعى الى عنايتك من حبك اياى . انهم يصلبون رجالا كثيرين كل يوم ، اما اليوم فهو يومى، ولا يكون الا مرة كل عام .

ـ وقد لا يتكرر صلب رجل قتل هذا النبى ، ابد الآبدين .

ـ انى عددت عليه بالامس من الذنوب ما احفظ عليه قوم اسرائيل كافة ، وجمعت عليه التهم ما جعل جريمته واضحة لا تقبل فيها رافة ، ولا رحمة ، فحكموا عليه بالصلب ، واعجب الناس يبلاغتى ، وهنأونى على ما ابديت من حرص على الايمان ، وعناية بالوطن ، وعلم بالتوراة ، ولابد ان اتبع نجاحى بالامس نجاحا جديدا اليوم ، حتى لا تهن عزائمهم فينكصوا .

الى ان قالت :

ـ وماذا علمت عنه حتى البت عليه قومك ، ابك موجدة عليه ؟

ـ انه يريد ان يجعل الجهلاء اندادا لامثالنا ، ويريد ان يجعل الفقراء وايانا سواء ، وفى ذلك قضاء على بنى اسرائيل كله . أيروق لك ان يساوى بيننا وبين ذلك الحداد الذى يعمل أمام بيتك ؟

ذلك هو الموضوع الذى اختاره الدكتور محمد كامل حسين لقصته « قرية ظالمة » (!) وقد ركز اهتمامه على ذلك اليوم المشئوم الذى صلب فيه « المسيح » وكان يوم جمعه . حين اجتمع كبار علماء بنى اسرائيل فى «دار الندوة» ليعلنوا قرارهم الاخير، وكان ذلك الشاب الذى يمثل الاتهام، يتحدث مع زوجته ـ وهى اجمل فتاة فى اورشليم ـ عن براءته فى ادانة ذلك الرجل الذى كفر بالله ، وانكر الصفات التى له فى التوراة ، لانه لايقول بجبروته وانتقامه ، وانما يقول ان الله هو الحب ، ويريد ألا يخاف الناس الله . وثارت زوجته الجميلة ، وقالت له : « اتقتلون رجلا أن يقول ان الله هو الحب ، تلك كلمة لا يقولها مجرم . الله هو الحب !..

وان المرأة تحب الرجل الذى يفهم الحب اكثر من حبها الرجل الذى يفهم النساء .

فاكثر هؤلاء منافقون ، ان حب المرأة هو الخطوة الاولى الى حب الله .

وهذا الموضوع شائك اذ يتصل بالديانات وخاصة الديانة المسيحية ، ويحتاج الى براعة فى التحليل المنطقى العميق . ومع ذلك اتخذ الدكتور محمد كامل حسين هذه المأساة .. مأساة الضمير الانسانى التى وقعت فى ذلك اليوم الذى يتذكره الناس كل عام ، والحقيقة ان هذا اليوم .. يوم الجمعة الذى اجمع بنو اسرائيل امرهم أن يطلبوا الى الرومان صلب المسيح . ليقضوا على دعوته ، كان امتحانا رهيبا وقاسيا للضمير الانسانى .

فما هو الأسلوب الذى اتخذه الدكتور محمد كامل حسين فى بناء قصته الطويلة هذه التى تقع فى ٢٣٤ صفحة . وما المجال القصصى الذى دارت فيه شتى انواع الاحداث . وكيف صور الصراع العنيف ، بين العقل والضمير ، وبين الحب والكراهية، وبين العدل والظلم ، وبين الايمان والكفر، وبين الشجاعة والجبن ، وبين الواجب والخيانة ، وبين المنطق والمنطق .

وكانت « أورشليم » هى خشبة المسرح الذى وقعت عظام الأحداث فوقه . فقد صور جميع اركان الصراع فى ثمانية عشر فصلا ، بدأها بذلك الحدث الذى دار بين ممثل الاتهام وزوجته الجميلة الفاتنة التى لا شأن لها فى الجدل السياسى المنطقى ، ولكنها الكلمات صافية ، صادقة عن الحب والله ، جعلت زوجها ممثل الاتهام الخطير ، يذهب الى دار الندوة مبلبل الفكر ، مزعزع الايمان فيما قاله بالأمس من أن ذلك الرجل قد كفر بالله ، ولكن صوتا خفيا من أعماقه .. يقول : كلا انه ليس بكافر .

حتى مفتى اورشليم نفسها ، يراجع نفسه فى حوار بينه وبين ابنه ، اذ يقول له ابنه :

ـ لعلك تريد اليوم أن تعـــدل عن رايك يا ابى

ـ وما الذى يمنعنى من ذلك ، انى لا اريد ان تبقى فتواى على مر الزمن سببا فى صلب رجل لا اعلم عنه شرا .

وعندئذ يحـاول المؤلف جاهدا ان يكشف الحوادث ، لتخـدم فكرته عن الصراع العنيف بين الضمير الانسانى ، والعقل الانسانى القاصر مهما يبلغ من قوة . اذ يصور لنا فى فصل كامل قصة « لازار » الرجل الذى احياه المسيح ، بعد ان مات الرجل . فعاد الى الحياة شـاحب اللون ، غائر العينين ، قليل الكلام ، وكان النـــاظر اليه لا يرى فى وجهه اثرا للعواطف الانسانية الطبيعية، فهو لا يفرح ولا يحزن ولا يضـــحك ولا يبكى .

وشخصية لازار هـــذه انمـا ترمز للضمير الانسانى بعد ارتكاب الخطيئة والتوبة . ان الله يتوب على النـــاس بعد المعصية فيرد اليهم ضميرهم بعـد موته ، لأن ارتكاب المعصـــية قتل للضمير ، ولكن الضـــمير يبعث على هيئة هذا الرجل ، شـــيئا بين الحى والميت، ولايمكن أن يكون ضمير الرجل بعد التوبة طاهرا نقيا ، كضمير البرىء الذى لم يرتكب اثما ..

فالكاتب كان عميقـــا فى تقصى كل صغيرة وكبيرة فى ذلك المجـال القصصى الذى اختطه لنفســـــه ، فقد التقط ببراعة كل الأحداث والشـــخصيات الدينية والتاريخية التى ورد ذكرها فى التوراة والانجيل ، والقرآن الكريم . ومزجها فى نسيج بديع ، متـــانيا فى عملية نسجه لهذا العمل الكبير .

فقد التقط شخصية « قيافا » ذلك الرجل الذى القيت مقاليد بنى اسرائيل اليه ، لعلمه ، وعدله ، وصوره فى فصل كامل هو الآخر ، ليحلل تحليـلا دقيقا أزمة الضمير الانسانى فى تلك اللحظات الخالدة . فقد جعل « قيافا » ينفـرد بنفسه ، يغوص فى أعماق أعمـــاقها ، ليستجلى الحقيقة، وليبحث عن عجلات النجاة ، لتنقـــذه من دوامة الباطل . لقد أعجب قيـــافا بالنبى الجديد لأنه استطاع أن يجد حلا . هذا الحل .. هو أن طبيعة الانسان جزء لا يتجزأ ، وكل فضيلة ـ مهما يكن أمرها خفيا ـ تعد حجرا فى بناء الشخصية.ولايضيع أثرها ، وان خفى على الناس فضلها . لقد أرشدهم النبى الجديد الى مملـكة الســـماء ، التى يدخل فيها الفقـراء والبسطاء والخاطئين والجهلاء .

وظل الكاتب يحلل موقف أهل الفكر والعلم من الدين الجديد ، داخل نفسية « قيافا » ، وقد بلغ فى ذلك التحليـل القمـة (ص ٥٦) . اذ يقـول قيافا لنفسه عن النبى الجديد « انه يريد أن يضع الضمير فوق التدين ، ولكن أهل التدين سيقضون عليه قبـل أن ينقذه أهل الضمير . ويريد أن يرفع صـغار الناس الى أن يساوى بينهم وبين من هم أعلى منهم ، ولكن هؤلاء سيقضون عليه قبل أن ينقـذه من يريد أن يرفعهم . ويريد أن يرفع الانسانية فوق الوطنية والقومية ، ولكن الوطنية ستقضى عليه قبل أن تنقذه الانسانية . انه لم يؤذ أى فرد من بنى اسرائيل ، ولن يؤذيه أى فرد منهم ، ولكنه يؤذى اسرائيـل

مجتمعة ، وجماعتهم هى التى ستنتقم منه ، وان كره كل واحد منهم أن ينتقم منه لنفسه ·

وفى دار الندوة ، حيث ينتظر بنو اسرائيل قرار حكمائهم ، وفقهائهم، كان هؤلاء الفقهاء بما فيهم «قيافا» وممثل الاتهام · وعدد كبير من الحكماء، مزعزعى الايمان فى الحكم على ذلك الرجل بالصلب · كان ضميرهم قد بدأ يستيقظ ، ولكن كيف يرجعون عن قرار الأمس ، وما اليوم الا التصديق على ذلك القرار ·

وأحست الجماهير بأن حكماءهم قد ترددوا ، فاقتحموا الدار وهم يصيحون: اقتلوهم ، حرقوهم جميعا ، لا بد من قتله وقتلهم معه ·

وسارت الجماهير الى دار الحاكم الرومانى تطالب بدم الرجل واتباعه · لم يكن فيهم من يعلم عنه شرا ، ولم يكن فيهم من يريد قتله ، عن عقيدة واقتناع شخصى·هكذا تمت أكبر جرائم التاريخ · جريمة الحكم على المسيح بالصلب لكفره بالله ، دون أن يعلم أحد من أهل أورشليم من الذى يراد قتله ، ولا عن من يقع وزر هذه الجريمة الشنعاء ·

ذلك هو اليوم المشئوم ··

وقد صوره محمد كامل حسين ·· عند بنى اسرائيل أولا · ثم انتهج نهجا آخر فى رواية أحداث هذا اليوم أيضا، ولكن عند الحواريين · وذلك فى خمسة فصول · ثم عند الرومان وذلك فى ستة فصول · فقد جعل يوم الجمعة هو محور ارتكاز لقصته ، ثم قسمها ثلاثة أقسام ، القسم الأول صور فيه حال بنى اسرائيل فى ذلك اليوم الخالد فى سبعة فصول · والقسم الثانى كان عند الحواريين ، بدأه بقصة « المجدلية » التى افتتنت بجمالها ، وتسبب جمالها فى مأساة دامية ، مات فيها أخوها · وأصبحت « المجدلية » شؤما · فتركت قريتها الى أورشليم ، بعد أن تحاشاها الناس حتى أمها · وفى أورشليم ظلت تبيع جسدها لتكفر عن خطيئتها الأولى· وفى وكر الرذيلة تعرفت على جندى شاب من الرومان · وأحبته حبا عنيفا· ولكنها ما ان سمعت بقصة النبى الجديد حتى وجدت فى دعوته خلاصها · واستجاب حبيبها الجندى الرومانى ، للدعوة الجديدة بعد أن آمن بها ، لأنها تدعو الى أن الانسان بدون الله هزأة لا معنى لعمله ولا قيمة للدوافع التى تصدر عنها أعماله ، فان ما يميز الانسان عن الحيوان هو الضمير ، والضمير من الله لا يكون ابن آدم الا حيوانا عاقلا ذكيا ، أما أن يكون بدون الله انسانا فذلك محال ·

وفى الجزء الثالث الذى صور فيه المؤلف يوم الجمعة عند الرومان · جعل هذا الجندى يقع فى أزمة ، ليصور الصراع بين النظام والضمير · فقد اشترك ذلك الجندى فى حملة عسكرية على قرية آمنة · وكانت قوية بايمان لهلها · فحاصرها الجيش الرومانى ، وحدث أن التقى هذا الجندى فى معركة صغيرة ، قتل فيها زميلاه ، ولم يبق الا هو وجندى من الأعداء · واستطاع أن يصيبه · ولكنه خشى أن يتركه فيموت ، فأعاده الى القرية · وكان

موقفا عنيفا . فقد عرف الضابط ثغره يستطيع بها جيشه أن ينفذ منها ويتحقق النصر . وانقسم أهل القرية قسمين ، قسم رأى أنه جندى نبيل لأنه عرف الثغرة وكان فى استطاعته أن يترك الجندى الجريح يموت. ولكنه آثر أن ينقذ الجريح ويعيده الى القرية. وقسم آخر رأى أن يسجن حتى لايفشى السر . وأخيرا قالوا له : اننا سنترك وشأنك ، تذهب الى تخومك ، ونحن نعلم أنك تستطيع أن تعين جيشك على فتح المدينة ، وأن عوامل الطمع أو الخوف قد تدفعك الى ذلك ، على أنك ان تفعل تكن جزيت احساننا اليك بسوء، ونحن لا نريد أن نجزى احسانك الينا بسوء .

وقد صور المؤلف هذه الحادثة ، لانه كان يعد للأحداث القادمة . فعندما فشلت الحملة ، وتم الصلح بين الرومان وأهل القرية . شاعت قصة الجندى النبيل ، ولكن الرومان وجدوا فيها خيانة عظمى . وأعد له القائد محاكمة.. وكان ذلك يوم الجمعة .. صباحا ، واتهموه بالخيانة العظمى، ووقف الجندى يدافع عن نفسه قائلا :

« أيها الاخوان .. انى لم أخنكم ولم أخن أحدا ، ولكنى خنت الظلم والعدوان واستغلال الأقوياء للضعفاء أمثالنا ليزيدوا قوتهم قوة ، وطغيانهم طغيانا. انى لم أوذ أحدا منكم ، ولكنى حرمتكم أن تقتلوا عددا أكبر من أهل المدينة الأبرياء الذين نصبتموهم لكم أعداء وأنتم لا تعلمون عنهم شيئا . وحرمتهم أن يقتلوا منكم عددا أكبر .

وتركه القائد يكمل دفاعه فقال الجندى أخيرا :

« سأذكر لكم أمورا ثلاثة يتحقق بها السلم .. ألا تعلنوا حربا الا أن يؤخذ فى أمرها الجنود فهم الذين سيقتلون. وأن يقسم الجندى عند التحاقه بالجيش ألا يتعدى حدود بلاده لأى سبب كان وأن تحرموا على القادة تحريما باتا أن يتعرضوا لحياة الجندى الذى لا يرى أن يحارب خارج بلاده . وان شئتم المزيد فلنعمل ما يعمله بعض أهل البلاد البعيدة الذين يضعون من بيدهم اعلان الحرب تحت قبة خاصة ، يتشاورون، فاذا قرروا اعلان الحرب خدمة للأمة هدموا عليهم القبة ، وساروا الى الحرب قائلين انها خدمة للأمة أن يشترك فيها أولو الأمر ، والجنود سواء بسواء . ولم تعلن فى تلك البلاد حرب منذ قرر أهلها هذا القرار » .

وحكم على الجندى بالاعدام . ومزقت جسده الجياد الأربعة التى أعدها له القائد . وعندما شاهد المنظر أصيب بلوثة فى عقله .

وفى ظهر نفس اليوم .. يوم الجمعة .. أظلمت الدنيا .. ثلاث ساعات ، عندما صلب المسيح .

وفى ذلك اليوم أراد الناس أن يقتلوا ضميرهم ، وفى هذا الذى أرادوه تتمثل نكبة الانسانية الكبرى . فلم يحدث فى العالم شرا الا كان أصله ما يريد الناس من قتل ضميرهم ، واطفاء نوره.

وليست أحداث ذلك اليوم من أنباء يوم فى حياة كل فرد . فالناس أبدا

معاصرون لذلك اليوم المشهود ، وهم أبدا معرضون لما وقع فيه أهل أورشليم حينذاك من اثم وضلال ، وسيظلون كذلك حتى يجمعوا أمرهم ألا يتخطوا حدود الضمير .

وقصة الدكتور محمد كامل حسين ، قصة أحداث ، وهى تكاد تكون العنصر

نفسها بقدر ما تخدم الحدث الذى أورده المؤلف ليصور صراعا ، بين الايمان والكفر مثلا ، أو الضمير والعقل ، لذلك لا يمكننا أن نحس بانفاس تلك الشخصيات ، أو نحس بتأثيرها على نفوسنا بقدر ما نتأثر بما أورده المؤلف من تحليل دقيق ، وحوار فلسفى عميق عن الدين ، والايمان ، والضمير . وقد استخدم الكاتب فى التعبير .. طريقة السرد المباشر ، ليتمكن من تصوير الأحداث والخلجات الانسانية ، وليكون قادرا على تحليل الشخصيات تحليلا فى منتهى العمق ، وتحليل الفكرة ، تحليلا منطقيا جذريا . ولكنه فى بعض الأحيان كشف القناع عن نفسه ، وظهر هو بانفاسه فى ص ٧٤ ، ٧٥ ، عندما علق علق على حادث الصلب . وخرج من سياق السرد المباشر ، الى التعليق المكشوف . « وهكذا حكم على المسيح بالصلب من أجل كفره بالله ، فهل يبقى بعد ذلك لأحد ثقة فى حكمة الانسان »

وقد نجح المؤلف فى حبكته الفنية ، وتسلسل الأحداث تسلسلا بديعيا ، فى أسلوب رصين ، كما برع الكاتب فى استخدام الألفاظ ، والتراكيب العربية براعة فائقة . وحوار سلس قصير ، مشبع بالفلسفة العميقة .

وتعد هذه القصة بحق ، من الدرر النادرة فى تاريخ قصتنا المعاصرة ، وقد توجتها الدولة بجائزتها للقصة .